

تصدير المغرب الأوسط للحبوب من (القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي) إلى (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)

عبد العزيز رشيد

أستاذ ثانوي

باحث دكتوراه في التاريخ الاقتصادي
الجمهورية الجزائرية



ملخص

اشتهر المغرب الأوسط بزراعة الحبوب وتصديرها إلى مختلف البلدان، ففي العهد الرستمي كانت الحنطة تصدر إلى الأندلس بسبب التأثير السلبي لثورات البربر على النشاط الزراعي. وكانت تنقل إلى المدن الأندلسية عبر عدة موانئ أهمها ميناء تنس. وصدرت الحبوب أيضًا إلى بلاد السودان الغربي، والمشرق الإسلامي خاصة أيام القحط. ولم يختلف الأمر في العصر الفاطمي. لكن الغزو الهلالي والنورماني لإفريقية قلص حجم المبادلات التجارية بين المغرب والمشرق ما عدا الحماديين الذين تجنبوا الخطر الهلالي من خلال التنازل لهم عن بعض الأراضي مما ساعدهم على تطوير الزراعة وتصدير الحبوب إلى مختلف الأقطار عبر عدة موانئ كجاية وتنس، بينما توقف تصديرها من إلى السودان الغربي بسبب تعطل الطريق البري نتيجة الغزوة الهلالية. وفي عصر الموحدين استمر تصدير الحبوب إلى إفريقية التي تأثرت بالغزو الهلالي، ورغم تحريم تبادل بعض السلع بين الموحدون والممالك الأوربية مثل الأسلحة والحبوب إلا أن هذا لم يمنع من انتقال الحبوب من المغرب إلى هذه الممالك. وفي العصر الزياني أتتج تلمسان مختلف الغلات منها الحبوب التي كانت تنقل إلى السودان، وإلى أوروبا رغم منع رجال الدين هناك من نقل بعض السلع إلى الدولة الزيانية منها الأسلحة، والحديد، والقمح.

كلمات مفتاحية:

التاريخ الاقتصادي، العصر الفاطمي، العهد الحمادي، تصدير الحبوب، الغلات الزراعية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٧ يونيو ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٠٢ أكتوبر ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد العزيز رشيد، "تصدير المغرب الأوسط للحبوب من (القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي) إلى (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)". - دورية كان التاريخية، العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ١١١ - ١٢١.

مقدمة

تنتشر بها ضياع وجنان واسعة تزخر بأنواع مختلفة من المزروعات منها الفواكه كالسفرجل والتين وغيرها، وأيضًا الحبوب التي لا تكاد تخلو منها مدينة أو قرية، وهذا يدل على أن المغرب الأوسط كان من أهم المناطق في زراعة الحبوب خلال العصر الإسلامي، مما جعله أهم منطقة لتصديرها إلى مختلف الجهات القريبة والبعيدة^(١) ومما لا شك فيه أن موقع المغرب الأوسط جعل منه همزة وصل بين أجزاء المغرب الإسلامي وما وراءها من البلاد فهو يربط إفريقية بالمغرب الأقصى، وبلاد السودان بأوروبا. كما أن سهولة المواصلات زادت من الأهمية التجارية للمغرب الأوسط، حيث أن الطرق التجارية كانت تمر

من المشاكل التي تعاني منها دول المغرب العربي اليوم، التبعية شبه الكاملة للدول الأجنبية في المجال الغذائي وخاصة الحبوب التي تُعدّ الغذاء الأساسي لسكان المنطقة. والسؤال المطروح هل كانت بلاد المغرب وخاصة المغرب الأوسط تعاني من المشكلة نفسها في العصور الإسلامية أم بالعكس كانت تصدر الغذاء وخاصة الحبوب إلى مختلف مناطق العالم؟ الملاحظ من خلال الاطلاع على المصادر وخاصة كتب الجغرافيين والرحالة العرب، أمثال البكري، والمقدسي وابن حوقل، والإدريسي وغيرهم، أن بلاد المغرب الإسلامي كانت

المنتشرة على سواحل البحر المتوسط مثل: مرسى فروخ القريب من مستغانم، ومرسى الدجاج، وتنس.^(١٠)

١-١- التصدير إلى الأندلس:

كانت أبرز العلاقات التجارية في عهد الرستميين قائمة مع الأمويين في الأندلس ومع بلاد السودان، حيث قام الرستميون بدور الوسيط التجاري بين الطرفين.^(١١) وكانت العلاقات السياسية الجيدة بين تيهرت وقرطبة على وجه الخصوص سبباً في وجود علاقات اقتصادية متميزة بين البلدين.^(١٢) وكان هناك نوع من حرية التنقل بين الدولة الرستمية والدولة الأموية للإقامة والعمل، حيث هاجر كثير من الأندلسيين إلى تيهرت التي استهوتهم بتقدمها الاقتصادي، فاستفاد منها القريب والبعيد.^(١٣) ونتيجة للثورات التي قام بها البربر ضد الحكم الأموي ابتداءً من (١٣٨ هـ / ٧٥٦م)،^(١٤) وأيضاً بسبب سنوات القحط التي عاشتها هذه المنطقة من المغرب الإسلامي لجأت الأندلس إلى تيهرت لإمدادها بكميات هامة من الحبوب، وكان استيراد الحنطة من تيهرت يساهم بقسط كبير في تمويل المدن الأندلسية،^(١٥) إلى درجة أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الثاني، وهو رابع أمراء بني أمية في الأندلس دعم علاقات الصداقة مع أئمة الدولة الرستمية رغم الاختلاف المذهبي لضمان تمويل رعاياه بالحبوب،^(١٦) وتفادي انتشار المجاعات بسبب الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي فرضتها الحالة السياسية المضطربة في البلاد.

كما هاجر الأندلسيون إلى تيهرت بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلادهم نتيجة الفتن والثورات حول الحكم التي استغرقت تقريباً سبعين سنة، وذلك خلال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، أي تقريباً من (٨٥٢م) إلى (٣٠٠ هـ / ٩١٢م)، وهي الفترة التي تعاقب فيها على الحكم ثلاثة من أمراء البيت الأموي، وهم: محمد الأول، والمنذر، وعبد الله.^(١٧) وهكذا يعيد التاريخ نفسه فالمقولة الرومانية المشهورة أن شمال إفريقيا أو بلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط خاصة خزينة أو خزان روما من القمح، تم إحيائها في العهد الرستمي ليعبر فائض القمح أو الحنطة من المغرب الأوسط هذه المرة ليس إلى روما وإنما إلى الأندلس.^(١٨) وكان تصدير الحبوب يتم عبر عدة موانئ أقيمت على سواحل المغرب الأوسط مثل مرسى فروخ، ومرسى الدجاج، وميناء تنس الذي كانت تختلف إليه السفن الأندلسية في فصل الشتاء ثم تعود منه في فصل الصيف، ولا شك أنه من بين السلع التي كانت تحملها السفن الأندلسية،^(١٩) الحبوب بحكم اشتها منطقة تنس وما جاورها بهذه الزراعة.

٢-١- التصدير إلى السودان:

رغم اتساع الصحراء الكبرى، إلا أن هذا لم يمنع من وجود اتصال مباشر وتبادل تجاري بين تيهرت وبلاد السودان، حيث كانت القوافل المغربية تجوب الصحراء متجهة إلى مدن السودان

عبر السهول الساحلية أو الداخلية دون وجود عائق طبيعي، زيادة على إشرافه على البحر من جهة الشمال. ونظراً لهذا الموقع الممتاز للمغرب الأوسط فقد تعدى نشاط تجاره الإطار المحلي إلى العالم الخارجي فكانت قوافله وسفنه تسير في جميع الاتجاهات حاملة مختلف السلع في ذهابها وإيابها.^(٢٠)

أولاً: تصدير الحبوب في العهد الرستمي

(١٦٠ هـ - ٢٩٩ م / ٧٧٧ هـ - ٩١١ م)

اجتمعت عدة عوامل ساهمت في ازدهار الزراعة بتيهت وغيرها من المناطق التابعة للدولة الرستمية، حيث عرفت بمزارعها وضياعها الواسعة، ووفرة مياهها. كما ساهم الأئمة الرستميون في هذا الازدهار الزراعي من خلال دعمهم المالي للمشروعات الزراعية، وعدم فرضهم ضرائب على الناس إلا ما أمر به الله من زكاة، وخراج، وجزية، مما جعل تيهت وغيرها من المناطق تشتهر بغلاتها المتنوعة منها الحبوب، إذ يصفها البكري بالبلد كثير الخير.^(٢١) وتنوعت العلاقات الخارجية للدولة الرستمية بحكم المصالح المشتركة. وكانت تيهت في عهد الرستميين أهم مركز تجاري يربط بين مختلف جهات المغرب الأوسط، وبين الدولة الرستمية ومختلف المناطق في المغرب الإسلامي وخارجه.^(٢٢) وبدأت تيهت تزدهر تجارياً منذ أيام إمامها الأول ومؤسس دولتها عبد الرحمان بن رستم خاصة تجارتها نحو السودان من أجل استيراد الذهب وإعادة تصديره إلى مختلف المناطق،^(٢٣) ومن العوامل التي ساعدت الرستميين على احتلال هذه المكانة وقوع عاصمتهم تيهت على طريقيين من أشهر الطرق التجارية في ذلك الوقت، وهو الطريق الرابط بين المشرق والمغرب الأقصى، والطريق الرابط بين الشمال والجنوب، أي بين الأندلس وبلاد السودان،^(٢٤) حيث يقول ابن الصغير عن الرستميين (واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها، وأنتهم الوفود من كل الأمصار، واستعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة).^(٢٥)

ومن العوامل أيضاً التي ساعدت الدولة الرستمية على احتلال هذه المكانة طبيعة التنظيم الإباضي الذي لا يسمح بتحصيل الجباية على التجار على أساس أنها محرمة شرعاً مما شجعهم على ارتياد تيهت من مختلف الأمصار للمتاجرة فيها.^(٢٦) كما أن استتباب الأمن نتيجة حسن سيرة الأئمة الرستميين مع الرعية، وتسامحهم مع أتباع المذاهب الأخرى، وسياسة حسن الجوار مع الدول المجاورة من بني مدرار والأغالبة، والأدارسة والأمويين وحتى مع أهالي السودان،^(٢٧) كلها عوامل جعلت تيهت قطباً تجارياً تأتي إليها السلع من مختلف الأمصار، من الأندلس والمغرب الأقصى والمشرق والسودان. كما كانت تخرج منها السلع المختلفة منها الحبوب عبر القوافل أو الموانئ

ثانياً: تصدير الحبوب خلال العصر الفاطمي

(٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م - ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م)

١-٢- التصدير إلى الأندلس:

وخلال العهد الفاطمي بقيت العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس نشيطة، نتيجة للازدهار الزراعي، والصناعي، وصارت الأسواق الأندلسية والمغربية تزدهم بمنتجات المنطقتين. وكانت السفن التجارية تنتقل بصفة دائمة بين سواحل بلاد المغرب، والأندلس، حيث كانت تنتقل بين مالقة أو ألمرية من جهة، حاملة سلعاً مختلفة منها القطن، وزيت الزيتون، والفاكهة والمعادن وغيرها، وموانئ المغرب الأوسط، كنتس من جهة أخرى، التي كثرت بها السلع والمنتجات المختلفة.^(٣٤) يقول ابن حوقل عن تنس بأنها (من البحر نحو ميلين، وهي من أكبر المدن التي يتعدى إليها التجار الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم، وينهضون منه إلى سواها).^(٣٥) وقد اشتهرت بكثرة القمح الذي كان يحمل منها في المراكب إلى سواحل الأندلس وغيرها، وكانت المرية من أنشط المدن والموانئ الأندلسية التي تصل إليها الحنطة من المغرب.^(٣٦) وأيضاً مدينة جزائر بني مزغنة الساحلية التي كثرت بها الأسواق التي تباع فيها مختلف السلع، منها العسل، والحنطة، والشعير الذي يزيد عن حاجتهم.^(٣٧) ومرسى الدجاج، ومرسى فروخ، ومرسى الخرز، وأيضاً وهران، إذ يقول ابن حوقل عن هذا الميناء الأخير وعن مدينة وهران عموماً أنها: (فرضة الأندلس إليها ترد السلع ومنها تحمل الغلال).^(٣٨) ومن بين هذه السلع أنواع الحبوب ولا سيما الحنطة إلى جانب اللحوم والعبيد. كما كانت أرزيو أو أرزوا تجلب إليها الحنطة من مناطق الأوساط القريبة منها فيسير بها التجار ويحملونها إلى كثير من البلاد).^(٣٩)

٢-٢- التصدير إلى بلاد السودان:

وفي العهد الفاطمي أيضاً استمرت العلاقات التجارية مع بلاد السودان بعد أن استولى الفاطميون على سجلماسة، فواصلت هذه المدينة ممارسة دورها كمركز تجاري مهم، وأصبحت في أيام الفاطميين (في القرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي) مستقراً للتجار العرب الذين اتجهوا إليها بحثاً عن الذهب فاختلفوا واندمجوا مع سكانها البربر.^(٤٠) وقد عمل الفاطميون على إكرام التجار الذين كانوا يتجهون بقوافلهم نحو سجلماسة قاصدين تيهرت.^(٤١) ولا شك أن هؤلاء التجار كانوا ينقلون معهم من بلاد المغرب سلعاً متنوعة منها الحبوب التي بقيت زراعتها مزدهرة خلال العهد الفاطمي، وكانت هناك ثلاثة طرق تمر بها القوافل المحملة بشتى أنواع السلع والمتجهة من بلاد المغرب إلى السودان أحدها من سجلماسة إلى السنغال، والثاني يمر عبر واحة وارجلان إلى نهر النيجر، والثالث إلى المشرق.^(٤٢)

الغربي، وقد أشار ابن الصغير أن تيهرت كانت تربطها تجارة غير منقطعة ببلاد السودان.^(٤٣) وذكر أن الإمام الرستمي أفلح حاول الذهاب إلى السودان عندما كان صغيراً قصد التجارة إلا أن أباه منعه.^(٤٤) كانت الدولة الرستمية تسيطر على معظم منافذ الطرق المؤدية إلى السودان، وعلى المراكز التجارية الصحراوية، منها ورجلان التي كان التبادل التجاري كثيفاً بينها وبين السودان، وأيضاً غدامس^(٤٥) التي كان يتجه منها التجار جنوباً نحو بلاد كانم من أرض السودان.^(٤٦) فقد أشرفت هذه الدولة على التجارة الصحراوية، واهتمت بها، وحفرت الآبار للقوافل في الصحراء، وأرسلت الجنود صحة التجار لتأمينهم.^(٤٧)

وكانت أهم المنتجات التي تحملها القوافل الرستمية إلى بلاد السودان الأكسية المتنوعة قطنية، وكتانية، والعمائم، وأصناف من الزجاج وغيرها. ومن المحتمل أن تجار المغرب الأوسط قد حملوا معهم الحبوب خاصة القمح والحنطة إلى السودان الغربي ومنها غانة لأن طعامهم اقتصر على الذرة واللوبياء، ولم تعرف قبائل الصحراء القمح إلا من خلال ما يأتي به التجار من المناطق التلية، حيث أن أكثر ما يزرعه أهل غزاوة إحدى مدن بلاد السودان كانت الذرة، وربما جلبت إليهم الحنطة من بلاد وارجلان وغيرها.^(٤٨) ويمكن القول؛ أن تجار تيهرت قد ساهموا بقسط وافر في نقل الحبوب وخاصة الحنطة إلى بلاد السودان،^(٤٩) كما كان المغاربة يصدرون إلى السودان القمح الذي لم يكن يزرعه السودانيون، وكانت أسعاره غالية جداً بسبب صعوبة نقله.^(٥٠)

١-٣- التصدير إلى المشرق:

لقد حتمت طبيعة الامتداد الجغرافي لحدود الدولة الرستمية إلى طرابلس أن تكون مصر منفذاً للقوافل الرستمية المتجهة إلى المشرق الإسلامي.^(٥١) وقد كانت هناك عدة طرق تسلكها هذه القوافل منها الطريق الساحلي الممتد من الإسكندرية ماراً بعدة مدن كبرقة وطرابلس، ثم يتجه الطريق إلى الداخل في اتجاه القيروان حيث يتفرع إلى ثلاث طرق تلتقي عند المسيلة، ومنها يتابع التجار الطريق إلى تنس عبر واد الشلف، ثم إلى تلمسان، وفاس،^(٥٢) كما كان للطرق الصحراوية دور هام في التبادل التجاري بين مصر وبلاد المغرب،^(٥٣) ومن جهتها كانت سفن المغاربة تقلع إلى مصر لنقل الحجاج، والعلماء، والتجار، حيث كانت مصر تتوسط المشرق والمغرب، وأصبحت مخزناً لمختلف السلع الشرقية والغربية. وفي طريق عودتها تبتاع غلات بلاد العرب، والحبشة وتسير السفن إلى إفريقيا، والمغرب الأوسط، ثم المغرب الأقصى، وتعود محملة بالسلع إلى الإسكندرية، ولا شك أن الحبوب كانت من بين تلك السلع^(٥٤) خاصة القمح والشعير،^(٥٥) وربما كان يحدث ذلك في أيام القحط عندما ينخفض منسوب مياه النيل وتقل الغلات.^(٥٦)

٣/٢- التصدير إلى المشرق:

كان لسيطرة الأسطول الفاطمي على حوض المتوسط أثر كبير على الحياة الاقتصادية والتجارية للبلاد الإسلامية وخاصةً المغرب الإسلامي، الذي أصبح يتحكم في نقل التجارة بين المشرق والمغرب خلال القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، حيث كانت سفن المغاربة دائمة التنقل إلى سوريا ومصر لجلب التوابل، والمنتجات الفاخرة من الشرقيين الأدنى والأقصى.^(٤٣) وقبل انتقال الفاطميين إلى مصر كان عدد كبير من المغاربة قد انتقلوا إلى مصر، واستقروا في الإسكندرية وما حولها لممارسة التجارة. ومما يدل على أهمية العلاقات بين المشرق والمغرب خلال العهد الفاطمي إدخال بعض الزراعات إلى بلاد المغرب مثل القطن، وقصب السكر، والزعفران.^(٤٤) وفي المقابل كانت السلع المصدرة من بلاد المغرب تتمثل في المنتجات الزراعية منها القمح والشعير.^(٤٥)

ولا شك أن الطرق التجارية بين المشرق و المغرب وخاصةً مصر والمغرب، تأثرت تأثرًا كبيرًا بالتغيرات التي طرأت على الخريطة السياسية لدول المغرب ابتداءً من النصف الثاني من القرن (٥ الهجري/ ١١م) والمتمثلة في هجرة بني هلال، وقيام دولة المرابطين، واحتلال النورمان لسواحل الدولة الزيرية، وضعف الدولة الفاطمية، ثم قيام الحروب الصليبية، كل هذه العوامل مجتمعة انعكست على طرق التجارة التي تحتاج إلى الأمن بالدرجة الأولى مما قلل حجم حركة السلع بين المشرق والمغرب، وتحول مركز الثقل في تجارة البحر المتوسط إلى المدن الإيطالية.^(٤٦)

ثالثًا: تصدير الحبوب خلال العهد الحمادي

(٢٩٧ هـ / ١٠٠٧م - ٥٤٧ هـ / ١١٥٢م)

بعد انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر كان حماد بن بلكين أول من أعلن انفصاله الروحي والسياسي عنها سنة (٤٠٥ هـ / ١٠١٤م)، ثم تبعه المعز بن باديس سنة (٤٠٧ هـ / ١٠١٦م)، إلا أنه بعد الغزو الهلالي لبلاد المغرب بإيعاز من الفاطميين أظهر القائد بن حماد ولاءه الشكلي لهم لإبعاد شر القبائل العربية.^(٤٧) واستطاعت الدولة الحمادية أن تتجنب فعلاً خطر الهلاليين مما ساعدها على تحقيق الرفاهية والرخاء الاقتصادي في شتى المجالات.^(٤٨) وكانت التجارة من أبرز نشاطاتها الاقتصادية وخاصةً عاصمتها بجاية وأحسن من يصف حالتها وازدهارها التجاري، واتساع علاقاتها مع مختلف الأمصار، وما نتج عن ذلك من أرباح طائلة ورخاء اجتماعي، الإدريسي الذي قال عنها (بجاية مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحة والأمتعة إليها براءً وبحراً مجلوبة والبضائع بها نافعة، وأهلها تجار مياسير يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار

الصحراء وتجار المشرق، وبها تباع البضائع بالأموال المقنطرة.. ومدينة بجاية قطب لكل بلاد).^(٤٩)

ويقول عنها ياقوت الحموي (بجاية لا يخصها من المنافع شيء، تركب إليها السفن وتساغر إليها جميع الجهات).^(٥٠) كما يقول عنها الحميري (هي قطب لكثير من البلاد. وهي مرسى عظيم تحط فيه السفن من كل جهة).^(٥١) يجمع إذا الرحالة على المكانة الاقتصادية والتجارية التي بلغت بجاية في عهد الدولة الحمادية. ومن العوامل التي ساعدتها على تبوء هذه المكانة، غناها الاقتصادي، حيث اشتهرت بوفرة إنتاجها الصناعي مثل صناعة الشموع، والزراعي، حيث نجد في المسيلة مزارع قطن وقمح وشعير.^(٥٢) وفي تنس الفواكه والحنطة وسائر الحبوب،^(٥٣) وفي قسنطينة الحنطة والعسل،^(٥٤) وفي مرسى الدجاج القمح والشعير والفواكه،^(٥٥) وفي بونة الفاكهة والقمح والشعير،^(٥٦) وأيضاً موقعها الاستراتيجي وطول شريطها الساحلي، وامتلاكها لعدد كبير من الموانئ والمراسي ذات الأهمية في التجارة الخارجية، من أشهرها من جهة الشرق مرسى بجاية وبونة، وسكيدة. ومن جهة الغرب بين بجاية وتنس كان هناك مرسى الدجاج، وجزائر بني مزغنة، ومرسى تدلس، وشرشال، وبرشك.^(٥٧)

وكانت أهم المراكز التجارية الحمادية بعد بجاية، قلعة بني حماد، وقسنطينة، وتيهرت والمسيلة وجزائر بني مزغنة. وكانت قلعة بني حماد مركزاً تجارياً هاماً لا سيما قبل اختطاط مدينة بجاية، وكانت ثلاثة طرق رئيسة تخرج من قلعة بني حماد، طريق يؤدي نحو بجاية، وطريق نحو القيروان وطريق نحو تونس. يقول الحميري عن قلعة بني حماد أنها كانت مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق، والحجاز، والشام، ومصر، وسائر بلاد المغرب.^(٥٨) ومما ساعد أيضاً الدولة الحمادية على الازدهار التجاري، الأمن والاستقرار السياسي رغم التحديات الخارجية الصعبة والمتمثلة في الغزو الهلالي، حيث تمكن بنو حماد من إبعاد شر بني هلال عن طريق التنازل عن بعض البوادي لفائدتهم^(٥٩) خاصةً بعد انتقال عاصمة الدولة من قلعة بني حماد إلى بجاية، وأيضاً توافد المهاجرين من صقلية بعد سقوطها في يد النورمان، ومن الأندلس كذلك حيث ساهموا في النشاط الاقتصادي خاصةً في التجارة والزراعة. ومن جهة أخرى علاقات الدولة الحمادية السلمية مع جيرانها كالزيريين شرقاً والمرابطين غرباً،^(٦٠) وحتى مع المسيحيين،^(٦١) حيث حاولت إقامة علاقات تجارية مع عدة دول وإمارات سواء على مستوى بلاد المغرب أو على مستوى البحر المتوسط والسودان، وحتى مع مناطق بعيدة في قارات أخرى كالصين، وكانت الحبوب ضمن الصادرات الحمادية لهذه الدول.^(٦٢)

١/٣- التصدير إلى المشرق:

السواحل، وكذلك من جنوة لشراء القمح من عنابة.^(٧٣) وقد بقيت مدينة بونة تزود المدن الإيطالية بمختلف أنواع الحبوب لمدة زمنية طويلة.^(٧٤) وكان الإيطاليون يذهبون إلى ميناء شرشال من أجل الحصول على الجلود والفواكه وأيضاً الحبوب التي كانت تجلب من سهول الشلف،^(٧٥) وسكيدة هي الأخرى كان سكانها يتاجرون مع الجنوبيين فيبيعون لهم القمح مقابل أقمشة وغيرها من منتوجات أوروبا.^(٧٦) كما كانت الحبوب تنقل من طرف تجار فرنسا وميورقة من مرسى الخرز وبونة، نحو المشرق الإسلامي وأوروبا.^(٧٧) وقد قامت مبادلات تجارية أيضاً بين بونة وبعض المدن الإسبانية رغم قلتها حيث كان تجار برشلونة يصدرون إلى عنابة مختلف الأقمشة مقابل استيراد الأصواف وخاصةً الحبوب.^(٧٨)

رابعاً: تصدير الحبوب في عصر المرابطين

(٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م - ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م)

شهد القرن (الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) ازدهار التجارة عبر الصحراء، إثر قيام قوة سياسية جديدة نجحت في توحيد المغرب الأقصى ومد نفوذها إلى بلاد الأندلس، هي قوة المرابطين،^(٧٩) التي وفرت ظروفاً آمنة للتجارة بفضل توحيدها لقبائل الصحراء التي سكنت في المنطقة الممتدة بين جنوب بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي. ومن خلال وصف البكري يتضح أن الطريق الذي كان يربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي في منتصف القرن الخامس الهجري يبدأ عادة من سجماسة ماراً بأودغشت في الجنوب ومنتهداً بغانة.^(٨٠) والجدير بالإشارة؛ أن هذا الطريق ارتفع شأنه بشكل كبير في هذا القرن، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الطريق الشرقي المرتبط بالمغرب الأدنى، والمغرب الأوسط قد تعطل بسبب هجرة القبائل الهلالية،^(٨١) وما رافقها من اضطراب سياسي، واقتصادي في المغربين الأدنى والأوسط، وقد أدى هذا إلى تعطل نشاط تجارة القوافل الصحراوية المستخدمة للطريقين الشرقي والأوسط.^(٨٢) وهذا ما يجعل احتمال توقف نقل الحبوب من المغرب الأوسط إلى بلاد السودان التي أصبحت بدون شك تستوردها من المغرب الأقصى خاصةً القمح الذي لم يكن يزرعه السودانيون، وكانت أسعاره عالية جداً بسبب صعوبة نقله.^(٨٣)

خامساً: تصدير الحبوب في عصر الموحيدين

(٥١٥ هـ / ١١٢١ م - ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م)

حتى لا يرهق عبد المؤمن الشعب بالضرائب اكتفى في بادئ الأمر بتحصيل الأموال الضرورية من خلال جمع الزكاة وتحصيل الاعشار واخماس الغنائم.^(٨٤) ولم تعرف بلاد المغرب في حياتها أيام أمن وعدل كأيام عبد المؤمن وبنيه؛ فكثرت بذلك الأموال وتأمنت الطرق وصلاح أمر الناس في البادية والحاضرة؛ وبدأت

كان لقدوم جيش مغربي سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) مع المعز لدين الله الفاطمي^(٨٥) أثر كبير في إقامة علاقات تجارية بين بجاية والمشرق الإسلامي ومصر بالأخص، حيث توافد عدد كبير من المغاربة على الإسكندرية وأقاموا فيها، وكانت التجارة بين المغرب الأوسط ومصر تمر عن طريق البحر لأن طريق البر كان غير آمن بعد الزحف الهلالي.^(٨٦) وقد كان هذا التبادل يتم من خلال مجموعة من الموانئ كبجاية وتنس ومرسى الخرز حيث كانت السفن تنقل الحجاج المغاربة وأيضاً السلع ومختلف المنتوجات الزراعية منها الحبوب من خلال الموانئ سالفة الذكر خاصةً بجاية وتنس، وفي المقابل كانت تشتري غلات بلاد العرب، والحبشة، والهند، وكان هناك تبادل للسلع بين بجاية والإسكندرية.^(٨٧)

٢/٣- التصدير إلى الدول الأوروبية والأندلس:

أما مع الدول الأوروبية فقد ظلت بجاية لعدة قرون أكبر وأهم المراكز للمبادلات التجارية خاصةً مع الإمارات الإيطالية وفي مقدمتها مدينة بيزا، ففي فترة حكم الناصر (١٠٠٧ - ١٠٢٨ م) بن علناس أقام علاقات ودية مع البابا جريجوريوس السابع، والمدن الإيطالية، وكان مما توصل إليه جريجوريوس والناصر إقامة أسقفية في بونة ورغم ذلك فإن العلاقات التجارية بين المملكة الحمادية والجمهورية الإيطالية تبدو ضعيفة بالمقارنة مع علاقاتها مع الأندلس أو المشرق بسبب الهجومات المتبادلة.^(٨٨) كما أنه بعد طرد النورمان للمسلمين من جنوب إيطاليا، وسيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن (٣ و ٤ هـ / ٩ و ١٠ م) ومحاصرتهم الحماديين،^(٨٩) تقلصت هذه المبادلات إلا أن الدولة الحمادية لم تدخل في صراع مباشر مع النورمان وغيرهم من المسيحيين وهذا ما سمح لها بإقامة علاقات طيبة معهم.^(٩٠) وقد شملت صادرات الدولة الحمادية منتجات متنوعة منها الخيول العربية، والجلود المدبوغة، ومادة الشمع، وزيت الزيتون، بالإضافة إلى القمح والشعير.^(٩١) ومن أهم الموانئ التي كانت تصدر من خلالها هذه السلع خاصةً الحبوب ميناء القل الذي كان يؤق إلى القمح من مناطق الإنتاج، ولاشك أن قسنطينة كانت من أشهر هذه المناطق. ثم يتم تصديره خارج البلاد خاصةً نحو جنوة الإيطالية، حيث كان تجار مدينة القل يحققون أرباحاً طائلة من خلال تجارتهم هذه. وكذلك ميناء بونة التي يقول عنها الإدريسي "وهي على نحر البحر، ولها أسواق حسنة، وتجارة مقصودة".^(٩٢)

وكانت تجارتها نشطة مع بعض جمهوريات إيطاليا ثم مع الساحل الأندلسي، ومن ثم أشار بعض الرحالة إلى كثرة التجار الأندلسيين فيها،^(٩٣) منهم الحميري الذي يقول عنها أن أكثر تجارها الأندلسيين، ومرساها من المراسي المشهورة.^(٩٤) وكانت سفن عديدة تأتي كل سنة من تونس، وجربة، ومن سائر

يمكن أن يتقوى به العدو،^(٩٦) حيث كان الموحدون يمنعون مواطنيهم من بيع القمح والمواد الغذائية، والخيل، والعتاد الحربي، والحديد والنحاس، ومن جهتهم حرم الملوك النصارى على مواطنيهم الاتجار مع المسلمين فيما يتعلق بمواد معينة كالثياب، وأنواع الطعام، والرقيق، والحبال، والأخشاب، والحديد.^(٩٧) ورغم قرارات المقاطعة بين الجانبين فقد قامت علاقات تجارية بين المسلمين والنصارى خاصة ما يتعلق بمادة الحبوب والزيت وبعض المنتجات الصالحة للاستهلاك العادي، حيث عقدوا من أجلها المعاهدات مع البندقية، وجنوة، ومرسيليا، وكطولونيا، وبيزة، وأغلب المدن الأوربية الساحلية.^(٩٨)

ويعود الفضل في ذلك إلى الموحدين الذين كان لهم دور فعال في إرساء تقاليد بحرية تتعالى عن الصراعات السياسية والعسكرية بين المسلمين والنصارى، وهذا بشهادة أحد المؤرخين الأجانب وهو "ماص لاتريس" الذي لاحظ أن المغرب الإسلامي كان متفوقاً خلال عصر الموحدين على الإمارات الأوربية فيما يخص التعامل مع السفن والمراكب الغارقة بعرض سواحلها، فقد فرضت السلطة الموحدية على رعاياها تقديم المساعدات الضرورية للمراكب التي تعاني من صعوبات داخل البحر، أو التي يرمي بها البحر على الشواطئ، كما فرضت عليهم احترام الركاب الناجين، ومساعدتهم، وحماية بضائعهم.^(٩٩) كما أن حاجة الدول الأوربية إلى السلع الآتية من السودان الغربي خاصة الذهب، والسلع المحلية كالأصواف والحبوب، جعل التنافس على أشده فيما بينها خاصة الجمهوريات الإيطالية كجنوة، وناپولي، وبيزة، والبندقية، والممالك الإسبانية مثل أرغون، وقشتالة، وأيضاً البرتغال، وجنوب فرنسا، خاصة مارسيليا.^(١٠٠)

وبعد أن بسط الموحدون سيطرتهم على شمال إفريقيا أقاموا علاقات تجارية مع الإمارات الإيطالية، وكطولونيا، وسمحوا لتجارها بالاستقرار في تونس، وبجاية، وبونة.^(١٠١) وقد وقعت اتفاقيات بين الطرفين تعطي للتجار الإيطاليين وخاصةً من مدينة بيزا تسهيلات^(١٠٢) في بونة، تسمح لهم المتاجرة بكل حرية داخل المدينة، وحتى مع القبائل التي كانت تسكن قريبا من الساحل، عن طريق تبادل مختلف السلع والمواد، منها الحبوب.^(١٠٣) واقتضت هذه العلاقات التجارية بين الغرب المسيحي من ناحية والغرب الإسلامي من ناحية أخرى، وبينهما وبين المشرق بوجه عام تنظيمًا للمعاملات التجارية، فعرفت الثغور الموحدية الأسواق المسورة، والوكالات، والفنادق التجارية.^(١٠٤)

سادساً: تصدير الحبوب خلال العهد الزياني

(١٢٣٥/٥ - ١٥٥٦/٥م)

عرف النشاط التجاري ازدهارًا كبيرًا في أيام الدولة الزيانية خاصةً في العاصمة تلمسان، التي كانت من أهم المدن التي

حياة الناس تستقر وبالتالي أخذت الحياة الاقتصادية تنتعش وأحوال الناس تتحسن.^(١٠٥) وأولى الموحدون عناية خاصة بالزراعة فكان عبد المؤمن يقوم مرة أو مرتين في الشهر بتوزيع النقود حسب حالة الخزينة على المحتاجين؛ كما أمر أهل البلاد الغربية بالرجوع إلى أراضيهم وفلاحتها، وكانت النظم العسكرية للموحدين تقضي على الجند بأن يتجنبوا السير في الأرض المزروعة،^(١٠٦) بل وأشراكهم في الحصاد أيضًا.^(١٠٧) ولم يهمل عبد المؤمن أرضًا صالحة للزراعة. وشجع المزارعين، حيث أسدت لهم الدولة النصائح العلمية حتى تدر الأرض إنتاجًا وفيرًا.^(١٠٨) وأتت هذه السياسة ثمارها فازدهرت الزراعة واستمرت بلاد المغرب في إنتاج مختلف الغلات، وبكميات وافرة مما ساهم في تنشيط التجارة الداخلية والخارجية، وتصدير الحبوب إلى بلدان مختلفة خاصة مع أوروبا، وإفريقية على السواء حيث تبادلت الجهات الغربية من بلاد المغرب المنتجات التجارية مع تونس، وبجاية، وقسنطينة.^(١٠٩)

١/٥- التصدير إلى الأندلس:

إن المصادر المعاصرة لفترة هذا البحث لم تهتم بالعلاقات بين المغرب والأندلس زمن الموحدين، وعدد الدراسات التي أنجزت حول المسالك البحرية في الحوض المتوسطي عامة والجزء الغربي منه خاصة قليلة جدًا، وذلك قياسًا بالدراسات التي أنجزت حول المسالك البرية، حيث يصعب تحديد طرق بعينها، اللهم إلا إذا استثنينا تلك المسالك التي كانت تحاذي البر في إطار الإبحار الملازم للساحل، أما باقي الخطوط فيما أنها كانت تربط بين ميناءين متقابلين كما هو الشأن بالنسبة لتلك التي تكلم عنها البكري.^(١١٠) ورغم ذلك فإن بعض المصادر ذكرت منتجات بلاد المغرب والأندلس من المحاصيل الزراعية، كما ذكرت تردد المراكب التجارية بين القطرين، لكن هذه المعلومات تنصف بالشمولية في معظم الأحيان دون تحديد.^(١١١) وقد نشطت الحركة التجارية وأخذت تسير بين المغرب والأندلس في قوافل منتظمة، حاملة البضائع المختلفة، فتنقل من المغرب والأندلس أنواع الغلات، والحبوب، والطعام ثم تعود بالتين، والقطن، وغيرها من السلع.^(١١٢) حيث يذكر صاحب الاستبصار أن الطعام كان يحمل من تنس إلى إفريقية، والمغرب، والأندلس.^(١١٣) وإلى ذلك تشير رواية ابن سعيد المغربي،^(١١٤) والزهرى.^(١١٥) وكانت الأندلس تصدر إلى المغرب الأخشاب والمزروعات ومنتجات الشرق، كما كان التبادل قائمًا بين المغرب، وتونس، وبجاية، وقسنطينة.

٢/٥- التصدير إلى الممالك النصرانية:

نظرًا للعداء الشديد والحرب المتواصلة بين الطرفين، فقد حرم الخلفاء الموحدون والملوك النصارى على رعاياهم التعامل تجاريًا مع رعايا الطرف الآخر، حيث تم تقنين التعامل التجاري من خلال تحديد لأحقة البضائع التي يحرم بيعها، وتشمل كل ما

ومما ساعدهم على ذلك هو امتداد الدولة الزيانية في عصرها الذهبي من دلس شرقاً إلى وادي ملوية غرباً، وهذا ما جعلها تمتلك موانئ تجارية هامة منها ميناء دلس التي كان يخرج من أرضها إلى كثير من الآفاق.^(١١٩) وميناء جزائر بني مزغنة، وهران، أرشقول وهنين.^(١٢٠) وهذه الموانئ كانت محل توقف وإقلاع السفن القادمة من أوروبا بغرض التجارة، وحتى السفن المتجهة نحو المشرق.^(١٢١) ويختلف إليها كثيراً عدد كبير من تجار جنوة، والبندقية حيث يتعاطون تجارة نافعة عن طريق المقايضة.^(١٢٢) ومن أهم الموانئ التي كانت تصدر من خلالها ميناء هنين، فرغم أنه كان ميناء صغيراً، إلا أن السفن الشراعية كانت تأتيه من كل الجهات، منها البندقية التي كان تجارها يحققون أرباحاً طائلة من خلال تعاملهم مع تلمسان.^(١٢٣)

وكان تجار البندقية يأخذون الحبوب من ميناء هنين نحو الأندلس، والدول الأوربية، وحتى بلدان المشرق. وهذه الحبوب كانت تنتجها سهول هنين،^(١٢٤) أو يتم جلبها من مناطق أخرى من بلاد المغرب الأوسط. كما كان تلمسان موانئ أخرى منها ميناء وهران، الذي كان يقلع منه إلى الأندلس في يوم وليلة، وكانت مراكب الأندلس إليه مختلفة.^(١٢٥) وميناء شرشال، وهو من الموانئ التي كانت تصدر منه الحبوب نظراً لأن منطقة شرشال كانت زراعية، ينتج أهلها من الحبوب ما يفوق حاجتهم، وتنقل إلى غيرها من الجهات داخل وخارج المغرب الأوسط.^(١٢٦) وكانت بها مؤسسات تجارية وقنصل تابع لدولة مايورقة يشرف على المبادلات ويقوم بقبض الضريبة الجمركية على السلع الواردة والصادرة، كما كانت تتوقف بها السفن القادمة من موانئ المغرب الأقصى، والأندلس، ويتم فيها تبادل السلع بين تجارها، وتجار تلك السفن.^(١٢٧)

كانت لتلمسان علاقات تجارية هامة مع الأندلس وأوروبا، حيث كانت الجهات الغربية من المغرب الأوسط تصدر القمح، والشعير، والحنطة إلى الأندلس بكميات كبيرة عن طريق سواحل تلمسان،^(١٢٨) والأمر الذي ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية والتجارية في تلمسان هي الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب عامة، وإلى تلمسان خاصة بعد منتصف القرن الخامس الهجري، وفي ظل دولة المرابطين، كما صاحب هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب قدوم جماعات كبيرة من اليهود واستقرارهم بالحوضر الكبرى كالجزائر وتلمسان، وأصبحوا يشكلون جماعة متميزة تمارس التجارة. ويذكر الإدريسي أن سائر الحبوب موجودة في تلمسان، وتخرج إلى الآفاق في المراكب.^(١٢٩) فبالنسبة للشعير فإن أهم الزبائن كانوا يأتون لشراؤه من برشلونة. أما القمح فكان يُصدر على وجه الخصوص إلى ميورقة، غرناطة، وأيضاً برشلونة.^(١٣٠) وكانت الدول الأوربية أيضاً تستورد كميات هامة من الحبوب التي تنتجها منطقة مليانة عن طريق ميناء شرشال القريب منها. وكانت أيضاً مبادلات تتم بين إسبانيا والقبائل

يتوافد إليها التجار من جميع الأقطار ومن كل الجهات،^(١٣٠) لأنها كانت عامرة بأنواع الغلات، ورخيصة الأسعار.^(١٣١) ومن العوامل التي ساعدتها على التبادل التجاري الخارجي وقوعها بين الصحراء جنوباً والتل شمالاً، وتشرف على البحر الأبيض المتوسط، فلا تفصلها عنه سوى مرتفعات على ساحله، وتحميها من جهة الجنوب سلاسل جبلية دون أن تعزلها عن البلدان الممتدة جنوب الصحراء، لأنها تحتوي على ممرات ضيقة، تعتبر بمثابة منافذ كانت تعبرها القوافل التي تنقل السلع والبضائع المختلفة من وإلى تلمسان.^(١٣٢) قال عنها الإدريسي (ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل والخارج منها).^(١٣٣) أصبحت تلمسان عبارة عن سوق كبير يلتقي فيه التجار القادمون من شتى أنحاء المغرب والأندلس، وأوروبا الغربية، وبلاد السودان،^(١٣٤) حيث كانت تستقبل السلع المستوردة لتموين السكان وتقوم في الوقت نفسه بتصدير منتوجاتها، حيث كثرت خيراتها. يقول الإدريسي (خيراتها كانت شاملة وتجارها كانت رابحة، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر منها أموالاً وأرقى منهم حالاً).^(١٣٥) ولم تنقطع المبادلات التجارية بينها وبين المناطق الأخرى داخلياً وخارجياً.^(١٣٦) وكان سكان المنطقة يتزودون من سوق تلمسان بمختلف المعروضات، وما زاد منها عن حاجة سكانها يعبرها ويذهب إلى غيرها من المناطق.^(١٣٧)

وفي عهد الموحيدين وخاصة أيام عبد المؤمن بن علي نشطت أيضاً الحركة الاقتصادية والتجارية، وربط الأعراب بقوافلهم التجارية بين الجهات الشمالية والجنوبية، وبين الجهات الشرقية والغربية، فكانت تلمسان متصلة دوماً اتصالاً وثيقاً بحواضر البلاد، وبالبلاد المجاورة حيث كانت القوافل التجارية تجوب القفار باتجاه إفريقيا السوداء،^(١٣٨) وسجلماسة، وورقلة، ومنها إلى السودان انطلاقاً من مدينة تيزيل الواقعة في جنوب تلمسان.^(١٣٩) وكان المغرب الأوسط في القرن السادس يصدر القمح من البلاد الغربية إلى السودان.^(١٤٠) وعلى الرغم من وجود معاهدات تجارية بين الدولة الزيانية والدول المسيحية، إلا أن رجال الدين في أوروبا كانوا أحياناً يضغطون على تجارهم بإصدار تعليمات تمنع نقل بعض السلع إلى أراضي الدولة الزيانية، ومن بينها الأسلحة والحديد والقمح.^(١٤١)

وعلى المنوال نفسه فعل فقهاء الدولة الزيانية، حيث كانوا يهونون عن التعامل مع النصارى. ولم يقتصر هذا المنع على الكفار بل شمل أيضاً القبائل العربية التي عرفت بالبغي والفساد، لأن بيع هذه الأشياء لهذه القبائل سيؤدي إلى تقويتها مما سيضر بالمسلمين.^(١٤٢) وحتى في الأزمات الاقتصادية يُمنع التعامل مع هذه القبائل كبيع القمح والشعير لهم لأن هذا الأخير يقدمونه علفاً لحيواناتهم.^(١٤٣) ورغم هذا المنع فإن التجار في تلمسان كانوا يتعاطون ويتبادلون السلع مع التجار الأوربيين.

الزمن، وينسأهم التاريخ، وبذلك يكونوا قد خالفوا سيرة أجدادهم عندما أدركوا أنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس، وهذا لن يتأتى إلا بالعزة بمعانيها الواسعة. والسؤال المطروح لماذا كان المغرب الأوسط يحتل هذه المكانة الهامة في تصدير الحبوب بينما أصبح ما يسمى الجزائر اليوم عكس ذلك تمامًا، أي من أكبر المناطق في استيرادها؟ فإذا استطاعت المنطقة أن تصدر الحبوب إلى مختلف جهات العالم في العصر الوسيط، فلماذا تعجز عن تحقيق ذلك في وقتنا الحاضر رغم تطور الوسائل الزراعية، وتخصيص إمكانيات هائلة لهذا القطاع؟

ندع الاجابة للمختصين في المجال الزراعي اليوم، فقط ندعوهم للاطلاع على تراث أجدادهم للتعرف على الحالة الزراعية الرائعة التي حققوها، ربما استفادوا منها لإيجاد حلول ناجعة وفعالة بالاعتماد على التقدم العلمي الهائل اليوم الذي بدون شك سيساعد في النهوض بالقطاع الزراعي مستقبلاً.

العربية والبربرية، حددتها بعض المعاهدات التجارية بين شيوخها وحكام وهران، وكانت تتم عبر موانئ وهران، وهنين، والمرسى الكبير، وتتس.^(١٣١) ومن أبرز السلع المصدرة نحو إسبانيا الحبوب عندما تكون بحاجة ماسة إليه.^(١٣٢)

الواردات:

لم تذكر المصادر والمراجع أن المغرب الأوسط كان من المناطق المستوردة للحبوب، إلا أن البلاد الشرقية أي إفريقية كانت تستورد من البلاد الغربية، الطعام ومنها القمح بكميات كبيرة قبل العصر الموحدوي^(١٣٣) خاصةً من وهران وسبتة، كما كان القمح يرد من صقلية إلى البلاد الشرقية بصفة خاصة قبل العصر الموحدوي، وأيضاً من جزيرة كريت.^(١٣٤) ولا شك أن السبب في تحول إفريقية والجهات الشرقية من المغرب الأوسط من مناطق مصدرة للحبوب إلى مناطق مستوردة^(١٣٥) مرده إلى الغزوة الهلالية التي أثرت تأثيراً كبيراً على الأوضاع الاقتصادية حيث أتلقت المحاصيل الزراعية، وجعلت الزراعة تنحصر داخل المدن، مما أوجب على إفريقية اللجوء إلى الاستيراد لتلبية حاجيات السكان.^(١٣٦)

خاتمة

والخلاصة؛ أن المغرب الأوسط ظل لقرون طويلة، من أهم المناطق المصدرة للحبوب في العالم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الإنتاج الوفير، والمردود المرتفع الذي كانت تجود به أراضي المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، وهذا ما تؤكده كتب الرحالة و الجغرافيين وبشكل ملفت للانتباه . ولا شك أن أهم الأسباب التي تقف وراء هذا الازدهار الزراعي الذي سمح بتصدير الفائض إلى الخارج، توفر المقومات الطبيعية الملائمة، من أراضي وسهول خصبة، ومياه غزيرة. لكن توفر هذه العوامل الطبيعية وحدها لم يكن ليُجعل من المغرب الأوسط جنات، وبساتين، وحقول، تزخر بأنواع من الغلات الزراعية، ولم يكن هذا الازدهار ليحدث لولا تفاني الإنسان المغربي، وعمله الدؤوب بتشجيع ودعم من الحكام وولاة الأمر الذين لم يدخروا جهداً وبذلوا كل ما في وسعهم لتحفيز الفلاحين على خدمة أرضهم حتى تُعطي لهم من خيراتها، وتجعلهم يحققون الاكتفاء الذاتي فينتجون ما يأكلون، بدل أن يمدوا أيديهم إلى الغير، فويل لأمة لا تنتج ما تأكل. بل واستطاعوا أن ينتجوا ما يفيض عن حاجتهم، ثم يصدرون الفائض إلى الخارج.

وربما لا نكون مبالغين إذا قلنا أن أجدادنا أدركوا أهمية الأمن الغذائي، ودوره في تحقيق السيادة الكاملة، الشاملة حتى لا يكونوا عالة على غيرهم، وخاضعين لإرادتهم، مما يفقدتهم الاستقلال الحقيقي، ويجعلهم دائماً تابعين، وبالتالي سيظلون تحت رحمة الغير، ليست لهم كلمة مسموعة، وفي مؤخرة الأمم. فيطويهم

- (٢٢) مدينة تقع في جنوب المغرب الأقصى. اشتهرت بدباغة الجلود ذات الجودة العالية. (ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، مج٤، ص١٧٨).
- (٢٣) الحريري محمد عيسى: المرجع السابق، ص٢١٠. كانم: من بلاد البربر بأقصى المغرب في بلاد السودان، وقيل: كانم صنف من السودان. (ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص٤٣٢).
- (٢٤) ناصر (محمد): **دور الإباضية في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، بدون تاريخ، ص٨.
- (٢٥) الإدريسي (الشريف): **المغرب وأرض السودان والمغرب**، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، المسبانية، سنة ١٨٦٣، ص٣٥.
- (٢٦) جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص٢٧٦.
- (٢٧) المرجع نفسه: ص٢٧٦.
- (٢٨) طه جمال أحمد: **مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين**، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص١٩٣.
- (٢٩) عزالدين أحمد موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم**، دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى، بيروت لبنان، ١٩٩١، ص٣٠٦.
- (٣٠) حسن خضري (أحمد): **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، مصر، بدون تاريخ، ص٩٦.
- (٣١) حسن إبراهيم (حسن): **تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي**، ج٤، ط ١٤، دار الجليل، بيروت، مكتبة النهضة، المصرية، ١٩٩٦، ص٣٨٨.
- (٣٢) ابن حوقل: **صورة الأرض**، الطبعة الثانية، طبع بمدينة بريل، ١٩٢٦م، ص٧٤، ص٧٥.
- (٣٣) حسن خضري أحمد: المرجع السابق، ص١٠٩.
- (٣٤) لويس (أرشيبالد): **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**، ترجمة أحمد محمد عيسى وراجع له محمد، شفيق غربال، ط ١، مصر، ١٩٨٦، ص٣٣.
- (٣٥) ابن حوقل: المصدر السابق، ص٧٧.
- (٣٦) ابن سعيد المغربي: **كتاب الجغرافيا**، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه، إسماعيل العربي؛ منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٧٠، ص١٤٢.
- (٣٧) القلقشندي (أبو العباس أحمد): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩١٣ ج٥، ص٢١٧.
- (٣٨) ابن حوقل: المصدر السابق، ص٧٨.
- (٣٩) المصدر نفسه: ص٧٨.
- (٤٠) الإدريسي: المصدر السابق، ص١٠٠.
- (٤١) الشихلي (صباح إبراهيم): **"النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي"**، مقال في كتاب تجارة القوافل ودورها التجاري حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ١٩٨٤، ص٣١، ٣٢. **سجلماسة**: يذكر البكري بأن سجلماسة بنيت سنة (١٤٠ هـ / ٧٥٧م). كما يصفها بأنها مدينة سهلية وأرضها سبخة وحولها أرباض كثيرة (البكري: أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ، ص١٤٨. وتقع سلجمانة جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، في مقطع جبل درن، في وسط الرمال، يمر بها نهر كبير. (ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص١٢٤. وكسبت سجلماسة أهمية تجارية كممر تجاري للقوافل الصحراوية بفضل مجاورتها لبلاد السودان والصحراء معًا. (ابن حوقل: المصدر السابق، ص٦٧).

- (1) L.Golvin: le Magrib central a l' époque des Zirides. Arts et métiers graphiques.18 rue Segulier. Paris. STRABON, GEOGRAPHIE, P.83.
- (٢) جودت عبد الكريم يوسف: **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص١٩٣، ١٩٤.
- (٣) البكري (أبو عبيد الله): **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ، ص٧٤.
- (٤) مارسى (جورج): **بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة محمد عبد الصمد هيكل، راجعه واستخلص نصوصه مصطفى أبو صيف أحمد، توزيع منشأة المعارف بالإسكندرية، بدون تاريخ، ص٩٧.
- (٥) زغلول (عبد الحميد): **تاريخ المغرب العربي الفاطميون وبنو زيري والسنهالجيون إلى قيام المرابطين**، ج٣، مكتبة نشأة، المعارف الإسكندرية، ١٩٩٠، ص٣٧٤.
- (٦) الحريري محمد عيسى: **الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس**، دار القلم الكويت، الهيئة العامة مكتبة الإسكندرية، بدون تاريخ، ص٣٣٣.
- (٧) ابن الصغير: **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق وتعليق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص٥٦.
- (٨) زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص٣١٠، ٣١١.
- (٩) رغم أن الأغلبية حرصوا على مقاطعة الرستميين تجاريًا وثقافيًا، إلا أن هناك علاقات تجارية كانت تتم بصورة غير رسمية، على المستوى الشعبي. (انظر: الحريري محمد عيسى: المرجع السابق، ص٢٠٠).
- (١٠) الميلي مبارك بن محمد: الميلي (مبارك بن محمد): **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج٢، تقديم وتصحيح محمد الميلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص٧٥-٧٦.
- (١١) الحريري محمد عيسى: المرجع السابق، ص٢٣٣.
- (١٢) جودت عبد الكريم: **التجارة الخارجية للدولة الرستمية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص١٤٩.
- (١٣) المرجع نفسه: ص١٥١.
- (١٤) حمدي (عبد المؤمن محمد حسين): **ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص١.
- (١٥) جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص١٦٧.
- (١٦) الحبيب الجنحاني: **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الإسلامي** (ق ٣-٤ هـ / ٩-١٠)، دار التونسية للنشر، ص١٣٤. تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٢م.
- (١٧) مصطفى مسعد (سامية): **العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية**، ط ١، عين للبحوث والدراسات، الإنسانية والاجتماعية، مصر، ٢٠٠٠، ص١٤.
- (١٨) بحاز إبراهيم باكين: **الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، نشر جمعية التراث، الطبعة الأولى، القرارة، ١٩٨٥، ص١٥٨.
- (١٩) عبد العزيز فيلالي: **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٠١.
- (٢٠) ابن الصغير: المصدر السابق، ص٨٠.
- (٢١) المصدر نفسه: ص٨١.

(74) F.ELIE DE LA PRIMAUDIE, commerce et navigation de l'Algerie. REVUE ALGERIENNE ET COLONIALE. JUIN 1860. P. 219.

(75) F Elie de la primaudaie. Op.cit. . P. 65 – 75.

(٧٦) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص ٤٤٣.

(٧٧) حساني مختار: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٥ ج ٣، ص ٣١.

(78) F.ELIE: op.cit. .P 65 – ٧٨.

(٧٩) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٦٦.

(٨٠) البكري: المصدر السابق، ص ١٤٩.

(٨١) عن الغزوة الهلالية وأثارها السياسية والاقتصادية على المغرب، انظر: (ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج ٦، ص ٣٧ - ص ٤٨).

(٨٢) هربك وجان ديفيس: المرابطون: تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، المجلد الثالث، بدون تاريخ، ص ٣٦٧.

(٨٣) طه جمال أحمد: مدينة فاس، ص ٢٠٤.

(٨٤) علام (عبد الله علي): الدولة الموحدية في المغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٥٧.

(٨٥) مبارك الميلي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٣٢.

(٨٦) عز الدين موسى: المرجع السابق، ص ٢٥٣.

(٨٧) المرجع نفسه: ص ٥٢.

(٨٨) المرجع نفسه: ص ٢٥٧.

(٨٩) حركات (إبراهيم): المغرب عبر التاريخ، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ٣٣٩.

(٩٠) البكري: المصدر السابق، ص ٨١ وما بعدها.

(٩١) أبو رميلة (هشام): علاقات الموحدين بالمالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٨٤، ص ٣٧٦.

(٩٢) المرجع نفسه: ص ٣٨٤.

(٩٣) مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب المصار، نشر من طرف ألفرد ديكريمر، ط ١، المطبعة الأميرية، فيينا، ١٨٨٢م، ص ١٣٣، ١٣٤، ١٧١، ١٧٣.

(٩٤) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٩٥) الزهري: (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر): كتاب الجغرافية، تحقيق حاج أحمد صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر بدون تاريخ، ص ١١٣.

(٩٦) حركات إبراهيم: المرجع السابق، ص ٣٣٩.

(٩٧) المرجع نفسه: ص ٣٩٢، ٣٩١.

(98) Mas laterie: Op.cit. , p ٨٧.

(٩٩) المنوني (محمد): حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٩، ص ١٣٣.

(١٠٠) المرجع نفسه: ص ٣٩٨.

(١٠١) أنشئ داخل مدينة عنابة فندق لإقامة تجار بيزا، وأيضاً كنيسة من أجل أداء صلواتهم، بالإضافة إلى فرن وحمام. وسمح لهم بالتعامل مع مَنْ يشاؤون، وبيع سلعهم بأبوة طريقة يرونها مناسبة حتى البيع بالمزاد. - المرجع نفسه، ص ٣٩٨.

(102) Mas latrie: Op.cit. , p87.

(103) f. ellie: op.cit. , p. 64.

(١٠٤) المنوني (محمد): العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة، ط ٢، ١٩٧٧، ص ٧٥.

(١٠٥) حساني مختار: موسوعة المدن الجزائرية، ج ٤، ص ٢٣٦.

(٤٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٩١.

(٤٣) حسن خضري أحمد: المرجع السابق، ص ٩٧.

(٤٤) لويس أرشيبالد: المرجع السابق، ص ٢٥٢.

(٤٥) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٤٦) لويس ارشيبالد: المرجع السابق، ص ٣٦١.

(٤٧) عويس عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، الطبعة الثانية، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص ١٦٨.

(٤٨) المرجع نفسه: ص ٢١٩.

(٤٩) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٠.

(٥٠) الحموي (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت): معجم البلدان، دار صادر بيروت، ١٩٧٧، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٥١) الحميري (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار في أخبار الأقطار، معجم جغرافي مع فهراس شاملة، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى ١٩٧٥، ص ٨١.

(٥٢) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٥.

(٥٣) المصدر نفسه: ص ٨٢، ٨٣.

(٥٤) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٦.

(٥٥) المصدر نفسه: ص ٧٦.

(٥٦) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٩٨.

(٥٧) بن قربة صالح وآخرون: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، وزارة المجاهدين، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٣٠.

(٥٨) الحميري: المصدر السابق، ص ٤٧٠.

(٥٩) الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في العهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ج ١، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ١٩٩٢، ص ٢٨٩.

(٦٠) بن قربة صالح وآخرون: المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٦١) عويس عبد الحليم: المرجع السابق، ص ٢٢٦.

(٦٢) المرجع نفسه، ص ٢٢٨.

(٦٣) حسن خضري أحمد: علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، ط ١، مكتبة مدبولي، مصر، بدون تاريخ، ص ٣٦.

(٦٤) بن قربة صالح وآخرون: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٦٥) عويس عبد الحليم: المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(66) Mas laterie (le compte): Relations et Commerce de l'Afrique septentrionale au maghreb avec les nations chrétiennes, -٩٠librairie6 de firmin -Didot, Paris, 1886

MAS LATERIE: Relation et Commerce, P. 180, P. 44.

(٦٧) عويس عبد الحليم: المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٦٨) المرجع نفسه: ص ١٨٦.

(٦٩) بن قربة صالح: المرجع السابق، ص ١٥١.

(٧٠) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٩.

(٧١) لقبال موسى: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن (٥ الهجري / ١١ الميلادي)، الشركة الوطنية، للنشر والتوزيع، ١٩٧٩، الجزائر، ص ١٣٩.

(٧٢) الحميري: المصدر السابق، ص ١١٥.

(٧٣) الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص ٤٥٠.

- (١٠٦) المرجع نفسه: ج ٤، ص ٣٨٧.
- (١٠٧) بشاري (لطيفة): "مكانة تلمسان التجارية في العهد الزياني"، مجلة دراسات تراثية، علمية سنوية يصدرها، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط بمعهد الآثار، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٣.
- (١٠٨) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٠.
- (١٠٩) بشاري لطيفة: المرجع السابق، ص ٢٣.
- (١١٠) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٠.
- (١١١) عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص ٣٢٥.
- (١١٢) بشاري لطيفة: المرجع السابق، ص ٢٦.
- (١١٣) الدراجي (بوزياني): نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، ١٩٩٣، ص ٢١٣.
- (١١٤) شريط عبد الله، الميلبي محمد: الجزائر في مرآة التاريخ، ط ١، طبع ونشر مكتبة البحث، قسنطينة، الجزائر، ص ١٠٦، ١٩٦٦، ص ١٠٦.
- (١١٥) الزهري: المصدر السابق، ص ١١٧.
- (١١٦) حساني مختار: تاريخ الدولة الزيانية، الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، ج ٣، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، بئر توتة، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٧٦.
- (١١٧) نفس المرجع: ص ٧٧.
- (١١٨) نفس المرجع: ص ٧.
- (١١٩) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٩٠.
- (١٢٠) أرشقول: أرشقول؛ مدينة كبيرة قديمة، بناها الأفارقة على صخرة يحيط بها البحر من كل جانب، ما عدا الجنوب. وهي على بعد تقريباً أربعة عشر ميلاً من تلمسان (حوالي ٢٢ كلم). كانت مدينة في غاية العمران والحضارة، لكن توالى عليها نواب الدهر وخرت عدة مرات إلى أن بعثه امن جديد الأندلسيون، وبها ميناء تجاري هام. انظر: حسن الوزان، المصدر السابق، ص ١٦.
- (١٢١) حساني مختار: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٧.
- (١٢٢) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص ٣٩٧.
- (١٢٣) المصدر نفس: ص ٤٠٣.
- (١٢٤) حساني مختار: المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٣٦.
- (١٢٥) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٣٧.
- (١٢٦) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٩٠.
- (١٢٧) حساني مختار: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٦.
- (١٢٨) عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص ٣٢٥.
- (١٢٩) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٨٣، ٨٤.
- (130) Dhina Attalah : le royaume abdelouadide a l' epoque d' Abou Hammou Mossa premier et d'Abou tachfin premier . offices des publications universitaires, Alger,1985, p.165.
- (١٣١) حساني مختار: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٩.
- (١٣٢) المرجع نفسه: ص ١٨٣.
- (١٣٣) عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص ٣٣٠.
- (١٣٤) المرجع نفسه: ص ٣٢٧.
- (١٣٥) روجر إدريس الهادي: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في العهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ج ١، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ١٩٩٢، ج ٢، ص ٢٨٢.
- (١٣٦) سالم عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الطبعة الأولى، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠١١، ص ٥٨٥.